

أضواء البيان

@ 419 @ اعلم أولاً أن لفظ (ما كان) يدل على النفي ، فتارة يدل ذلك النفي من جهة المعنى على الزجر والردع ، كقوله تعالى : { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ } . وتارة يدل على التعجيز ، كقوله تعالى : { ءَأَلَلَّهُ خَيْرٌ أَمْ لَا يُشْرِكُونَ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ آثِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا } . وتارة يدل على التنزيه ، كقوله هنا : { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ } وقد أعقبه بقوله { سُبْحَانَ اللَّهِ } أي تنزيهاً له عن اتخاذ الولد وكل ما لا يليق بكماله وجلاله .

فقوله { مَا كَانَ لِلَّهِ } بمعنى ما يصح ولا يتأتى ولا يتصور في حقه جل وعلا أن يتخذ ولداً ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً . والآية كقوله تعالى : { وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً } . وفي هذه الآية الرد البالغ على النصارى الذين زعموا المحال في قولهم (عيسى ابن الله) وما نزه عنه جل وعلا نفسه هنا من الولد المزعوم كذباً كعيسى نزه عنه نفسه في مواضع أخر ، كقوله تعالى : { إِنَّ زَنْمًا أَلَمَسَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ } إلى قوله { إِنَّ زَنْمًا أَلَمَسَهُ إِلَاهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ } . والآيات الدالة على مثل ذلك كثيرة ، كقوله تعالى : { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدْياً } تكاد السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدْياً أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنَ وَلَداً وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً } إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم مستوفى في سورة (الكهف) . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : { إِذَا قَضَى أَمْرًا } أي أراد قضاءه ، بدليل قوله : { إِنَّ زَنْمًا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَادْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } ، وقوله تعالى : { إِنَّ زَنْمًا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } وحذف فعل الإرادة لدلالة المقام عليه كثير في القرآن وفي كلام العرب ، ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ } ، أي إذا أردتم القيام إليها ، وقوله تعالى : { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَغِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } أي إذا أردت قراءة القرآن ، كما تقدم مستوفى .

وقوله تعالى في الآية التي نحن بصدها : { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ
وَلَدٍ } زيدت فيه لفظة (من) قبل المفعول به لتأكيد العموم . وقد تقرر في الأصول أن
النكرة في سياق النفي